الحكمة والتعليل في أفعال الله

(بين القضاء والقدر)

بحث رسالة تكميلية

تقديم :عبدالله عمر موسى سناكواae271

اشراف : الدكتور محمد السيد البساطي

المقدمة

بحث رسالة تكميلة عبدالله عمرموسى سناكواae271

مرحلة الماجستير

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً ـ.

أما بعد، فإن علم العقيدة أشرف العلوم، وأعظمها، وأهمها.

وإن من أجلّ النعم وأوفاها وضوحَ العقيدة الإسلامية، وموافقتَها للفطر القويمة، والعقول السليمة، وسلامتها من التناقض والاضطراب واللبس والغموض؛ فألفاظها سلسة، ومعانيها بينة يفهمها العالم والعامي، والصغير والكبير.

وأدلتها المستقاة من الكتاب والسنة تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي، وأول النظر، ويشترك كافة الخلق في إدراكها؛ فهي مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي والضعيف؛ فأدلة الكتاب والسنة سائغة جلية تقنع العقول، وتسكن النفوس، وتغرس الاعتقادات الصحيحة الجازمة في القلوب.

ألا ترى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ سورة الروم: ٢٧، وأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمُدبِّرين فكيف في جميع العالم؟! ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ سورة الأنبياء: ٢٢، وأن من خلق علم، ثم خلق كما قال ـ تعالى ـ ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ سورة الملك: ١٤.

فهذه الأدلة وأمثالها تجري مجرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي[(١)].

هذا وإن باب القدر لمن أعظم أبوب العقيدة، وشأنه شأن غيره من الأبواب الأخرى من حيث الوضوح والبيان، بل إن له شأناً عجيباً؛ لأن عامة الناس أعلم به من المتكلمين والفلاسفة؛ لأنه مسألة بديهية، والبديهي كلما زاد التعمق فيه بعد عن الإدراك[(٢)]، فالإيمان بالقدر أمر فطري، والعرب في جاهليتها وإسلامها لم تكن تنكر القدر، كما صرَّح بذلك أحد أئمة اللغة وهو أحمد بن يحيى ثعلب بقوله: «ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية وأهل الإسلام»[(٣)].

وإثباتهم للقدر مبثوث في ثنايا أشعارهم وخطبهم ـ كما سيمر بنا قريباً عند

---

(١) أشار إلى هذا المعنى اللطيف ابن الوزير اليماني، انظر «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» ص٣٤٨.

(٢) أشار إلى هذا المعنى الشيخ محمد رشيد رضا، انظر «منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة» لتامر متولي ص٥٨٦.

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي ٤/٧٠٤ـ٧٠٥.

الحديث عن أدلة القدر ـ فهم يثبتون القدر ولا ينكرونه، وإن كان هذا الإثبات قد يشوبه بعض التخبط والجهل في فهم حقيقة القدر.

أهمية موضوع القدر:

من خلال ما مضى يتبين لنا شيء من شأن القدر، وفيما يلي مزيد بيان لأهميته:

١ـ ارتباطه بالإيمان بالله: فالقدر قدرة الله[١] **و**المؤمن به مؤمن بقدرة الله، والمكذب به مكذب بقدرة الله ـ عز وجل ـ.

ثم إنه مرتبط بحكمة الله ـ عز وجل ـ وعلمه، ومشيئته، وخلقه.

٢ـ كثرة وروده في أدلة الشرع: فنصوص الكتاب والسنة حافلة ببيان حقيقة القدر، وتجلية أمره، وإيجاب الإيمان به.

وهذا ما سيتضح في ثنايا هذا البحث.

٣ـ أنه من الموضوعات الكبرى: التي خاض فيها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم؛ والتي شغلت أذهان الفلاسفة، والمتكلمين، وأتباع الطوائف من أهل الملل وغيرهم.

---

(١) هذه مقولة للإمام أحمد رحمه الله، انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٠٨/٨، وطريق الهجرتين لابن القيم ص٧٠.

٤ـ ارتباط القدر بحياة الناس وأحوالهم: فهو مرتبط بحياتهم اليومية وما فيها من أحداث وتقلبات ليس لهم في كثير منها إرادة أو تأثير.

ولو لم يكن هناك إلا مسألة الحياة والموت، وتفاوت الناس في الأعمال والمواهب، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والهداية والإضلال ـ لكان ذلك كافياً في أن يفكر الإنسان في القدر.

٥ـ كونه أعوصَ أبواب العقيدة: فمع أن باب القدر معلوم بالفطرة ـكما مرـ وأن نصوص الشرع قد بينته غاية البيان إلا أنه يظل أعوص أبواب العقيدة؛ فدقة تفاصيله، وتشعب مسائله، وكثرة الخوض فيه، وتنوع الشبهات المثارة حوله ـ كل ذلك يوجب صعوبة فهمه، وتعسر استيعابه.

فلا غرو أن يحار الناس في شأنه في القديم والحديث؛ فلقد سلك العقلاء في هذا الباب كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وقصدوا إلى الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته؛ فلم يرجعوا بفائده، ولم يعودوا بعائده، لأنهم التمسوا الهدى من غير مظانِّه، فتعبوا وأتعبوا، وحاروا وتحيروا، وضلوا وأضلوا.

٦ـ ما يترتب على الإيمان به على الوجه الصحيح: فذلك يثمر السعادة في الدنيا والآخرة، ويورث اليقين، ويكسب الأخلاق الفاضلة، والهمم العالية، والإرادات القوية.

٧ـ ما يترتب على الجهل به: فالجهل به، أو فهمه على غير الوجه الصحيح يورث الشقاء، والعذاب في الدنيا والآخرة.

والواقع يشهد بذلك في أمم الكفر؛ إذ يشيع فيها قلة التحمل، والانتحار، والقلق.

وكذلك الحال في أمة الإسلام؛ فما تخلفت في عصورها المتأخرة إلا لأسباب أبرزُها جهلُ كثير من المسلمين، وانحرافهم في باب العقيدة ـ عموماً ـ وفي باب القدر ـ خصوصاً ـ.

وذلك عندما اتخذ كثير منهم من الإيمان بالقدر مسوغاً واهياً لعجزهم، وانهيارهم، وإخلادهم إلى الأرض، تاركين الأخذ بالأسباب، ناسين أو متناسين أن أقدار الله إنما تجري وَفْقَ سننه الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تحابي أحداً كائناً من كان.

فلعل الأمة الإسلامية تفيق من رقدتها، وتتولى قوامة البشرية، وتأخذ مكانها اللائق بها، وذلك بعودتها إلى عقيدتها الصافية النقية التي هي مصدر مجدها، ومنبع عزها.

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية موضوع القدر.

أسباب البحث في الموضوع:

وإن مما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع أمور منها:

١ـ أهمية هذا الباب ـ كما مر ـ.

٢ـ أن هذا الموضوع كان يشغل بالي منذ مدة طويلة؛ فكنت أكثر البحث فيه، والقراءة حوله، وكنت أكتب بعض ما أتوصل إليه، وأعرضه على بعض أهل العلم ومن هنا كانت الرغبة في الكتابة في هذا الباب بصورة أشمل وأوسع.

٣ـ الرغبة في تيسير فهم القدر، وتقريبه إلى الأذهان.

٤ـ الرغبة في الإجابة عما يُثار حول هذا الباب من أسئلة تُطرح، وإشكالات تتكرر، وشبهات تُلقى.

هذا ما دفعني للكتابة في باب القدر، فجمعت ما تيسر من متناثره، وحرصت ـ قدر المستطاع ـ على إيضاح ما دق من مسائله، مستنيراً بأضواء الكتاب والسنة، مستعيناً عليه بفهم سلف هذه الأمة، مستفيداً مما رقمته يراعة العلماء والباحثين في هذا الباب.

الدراسات السابقة:

فالعلماء الأوائل أودعوا مصنفاتهم الحديث عن القدر، وكان ذلك ضمن أبواب العقيدة الأخرى، كما في صنيع الإمام عبدالله بن أحمد في كتابه السنة، والإمام الآجري في الشريعة، والإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة وغيرهم.

وَقلَّ أن يفردوا كتاباً يتعلق بالقدر وحده، ومن القليل من ذلك كتابُ القدر للفريابي وهو يعنى ـ في غالبه ـ بذكر الآثار المروية في القدر.

ومن ذلك رسائلُ وفتاوى متعددة لشيخ الإسلام ابن تيمية مبثوثة في كثير من كتبه خصوصاً المجلد الثامن من مجموع الفتاوى، وشفاء العليل لابن القيم.

أما في العصور المتأخرة فظهرت كتب في القدر منها الكبير، ومنها الرسائل الصغيرة، ومنها ما يتناول جزئية معينة من هذا الموضوع، ومن الكتب المؤلفة في

ذلك:

١ـ القضاء والقدر للعلامة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله وهي رسائل صغيرة.

٢ـ القضاء والقدر للشيخ د.عمر الأشقر، وهو كتاب متوسط نافع.

٣ـ القضاء والقدر للشيخ د.عبدالرحمن المحمود، وهو مجلد كبير ويكاد يكون أحسن ما كُتب في هذا الباب.

وهناك كتب أخرى كثيرة في هذا الباب، ولا يخلو غالبها من ملحوظات.

أما خطة هذا البحث فقد اشتملت على هذه المقدمة، وعلى تمهيد، وبابان، وخاتمة، وذلك كما يلي:

المقدمة

وفيها بيان مجمل لموضوع القدر، وأهميته، والسبب من وراء البحث فيه، كما أن فيها بياناً لخطة البحث.

تمهيد

وفيه الحديث عن مسألة حكم البحث في القدر، وتفصيل القول فيها، ومتى يجوز، ومتى لا يجوز، مع توجيه النصوص الواردة في ذلك.

الباب الاول: مسائل وإشكالات حول القدر

وتحته ثلاثة فصول

الفصل الأول: الإيمان بالقدر ومشيئة العبد واختياره

الفصل الثاني: فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الثالث: الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات وترك

الواجبات:

وتحته بيان لبطلان الاحتجاج بالقدر على هذا النحو من أوجه عديدة، كما أن فيه بياناً للحالة التي يسوغ فيها الاحتجاج بالقدر.

الباب الثاني: الحكمة والتعليل في أفعال الله

وتحته تمهيد، وأربعة فصول:

تمهيد: وفيه حديث عن مسألة تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة فيها.

الفصل الأول: نسبة الشر إلى الله ـ تعالى ـ وحكم ذلك، والحكمة من إرادة الله لما يحبه.

الفصل الثاني: الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام

الفصل الثالث: الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها

الفصل الرابع: الرضا بقدر الله، وحكم ذلك

الخاتمة

وفيها خلاصة لأهم ما ورد في البحث

منهج البحث:

أولاً: اقتضت مادة البحث أن يُستخدم في تناوله المنهجان التاريخي والوصفي؛ فالتاريخي يقوم على رصد موضوع القدر، وتتبع تاريخ الانحراف فيه سواء كان ذلك الانحراف قبل الإسلام أو بعده.

والوصفي وقد تم من خلاله عرض موضوع القدر، وبيان المنهج الصحيح فيه، وكذلك تم عرض أقوال الطوائف المنحرفة في القدر.

ثانياً: حرصت في البحث على:

١ـ ترقيم الآيات القرآنية وبيان سورها في أعلى الصفحة حتى لا تكثر الهوامش.

٢ـ تخريج الأحاديث النبوية، وبيان ما ذكره أهل الاختصاص في شأنها إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما؛ فإن كانت كذلك اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، واكتفيت بالعزو إلى رقم الحديث إذا كان الكتاب الحديثي مرقماً؛ فأكتفي برقمه ووضعه بين قوسين، أما إذا كان غير مرقم فأشير إلى الجزء والصفحة إذا كان ثمَّ أجزاء هكذا على سبيل المثال ١/٢٠، أو إلى رقم الصفحة إذا لم يكن ذا أجزاء هكذا ص٢٠.

٣ـ العناية بإخراج البحث بحلة قشيبة منظمة.

٤ـ العناية بسلامة الأسلوب، وتيسيره، وسيره على قواعد اللغة العربية، والحرص على جعله حالاً بين حالين: بين الوحشي الغريب، والسوقي القريب.

٥ـ مراعاة قواعد الإملاء من علامات ترقيم ونحوها مما ييسر فهم المقصود، وإبعاد اللبس.

٥ـ الترجمة للأعلام غير المشهورين ممن لهم صلة وثيقة بموضوع البحث.

٦ـ الاقتصار على ذكر اسم الكتاب والمؤلف عند أول ذكره إذا لم يكن هناك اشتباه بين الكتب؛ فإذا خُشي اللبس أُعيد ذكر المؤلف، أما تاريخ الطبعات

ورقمها وما جرى مجرى ذلك فيرجئ إلى فهرس المصادر والمراجع.

٧ـ إلحاق البحث بالفهارس :

أ- فهرس الآيات القرآنية

ب- فهرس الأحاديث والآثار

د - فهرس الأعلام المترجم لهم

ز- فهرس الموضوعات

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى الله - عز وجل - على ما يسر وأعان، وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي ما كان فيه من زلل.

وبعد شكر الله - عز وجل - أتوجه بالدعاء لكل من أعانني في تتمة بحثي بفكره ومشورة ورأيه وأفاد بملحوظاته القيمة ؛ فأسأل الله أن يغفر لهم وأن يجزيهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ثم أتوجه بالشكر الجزيل لجامعة المدينة العالمية بماليزيا التي تكرمت بقبول الالتحاق بها، وأخص بالشكر كلية الشريعة الإسلامية.

وأشكر فضيلة أستاذي الشيخ الدكتور المشرف محمدالسيد البساطي الذي تكرم بقبول الإشراف على هذا البحث، وأفادني بملحوظاته، فجزاه الله خير الجزاء، وبارك في علمه وعمره.

والشكر موصول لمن راجع هذه الرسالة وأمدني بملحوظاته.

كما أشكر كل من أعان على إخراج هذه الرسالة من الإخوة الكرام،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

تمهيد
مسألة في حكم الحديث عن القدر

قبل الدخول في تفاصيل الحديث عن القضاء ـ يحسن الوقوف عند مسألة أُثيرت قديماً، وتثار حديثاً، مفادها: أنه لا ينبغي الحديث في مسائل القدر مطلقاً، بحجة أن ذلك يبعث على الشك والحيرة، وأن هذا الباب زلّت به أقدام، وضلَّت به أفهام.

والكلام هكذا ـ على إطلاقه ـ غير صحيح، لأمور عديدة منها:

١ـ أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان: ولا يتم إيمان العبد إلا به، فكيف يُعرف إذا لم يُتحدث عنه، ويُبَيَّن للناس أمره؟!

٢ـ أن القرآن الكريم مليءٌ بذكر القدر وتفاصيله: والله ـعز وجلـ أمرنا بتدبر القرآن وعَقْلِه، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ سورة ص: ٢٩، وقوله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد: ٢٤.

فما الذي يخرج الآيات التي تتحدث في القدر عن هذا العموم؟!

٣ـ أن الإيمان بالقدر ورد في أعظم حديث في الإسلام: وهو حديث جبريل ـعليه السلامـ وكان ذلك في آخر حياة النبي ﷺ وقد قال ﷺ في آخر الحديث: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1].

---

(١) رواه مسلم (٨).

فمعرفته ـ إذاً ـ من الدين، وهي واجبة ولو على سبيل الإجمال.

٤ـ أن الصحابة سألوا النبي ﷺ عن أدق الأمور في القدر: كما جاء في حديث جابر في صحيح مسلم عندما جاء سراقة بن مالك بن جعشم إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت المقادير؟ أم فيما نستقبل؟

قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت المقادير» قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر».

وفي رواية «كل عامل ميسر لعمله» [(١)].

٥ـ أن الصحابة علَّموا تلاميذهم ـ من التابعين ـ ذلك: وسألوهم؛ ليختبروهم، وينظروا في فهمهم لهذا الباب، كما جاء في صحيح مسلم أن أبا الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قَدَرِ ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟

فقلت: بل شيءٌ قُضي عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، قلت: كل شيء خلق الله، وملك يده،

---

(١) مسلم (٢٦٤٨).

فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأَحْزُر[(١)] عقلك»[(٢)].

٦ـ أن أئمة السلف الصالح من العلماء كتبوا في هذا الباب: بل وأطنبوا فيه، فلو قلنا بمنع الحديث عن القدر لضللناهم، وسَفَّهْنَا أحلامهم.

٧ـ لو تركنا الحديث عن القدر لجهل الناس به: ولربما انفتح الباب لأهل البدعة والضلالة؛ ليروجوا باطلهم، ويَلبسوا على المسلمين دينهم.

٨ـ فوات العلم والخير: فلو تركنا الحديث عن القدر، وعن ثمراته لفاتنا علم غزير، وخير كثير.

فإن قيل: كيف نجمع بين هذا وبين ما ورد في ذم الخوض في القدر، كما في قوله ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا»[(٣)].

---

(١) الحَزْر: التقدير، والحَدْسُ، وإعمال الرأي، والمراد هنا: أني أردت أن أمتحن عقلَك، وأقدِّرَ ما وصلت إليه وأعمل رأيي في معرفة مدى فهمك. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/٥٥، ولسان العرب لابن منظور ٤/١٨٥ـ١٨٦، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٩.

(٢) مسلم باب القدر (٢٦٥٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، ١٠/٢٤٣ (١٠٤٤٨)، وأبو نعيم في الحلية، ٤/١٠٨، وقال أبونعيم: «غريب من حديث الأعمش تفرد به عنه مسهر».

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٢٠٢: «وفيه مسهر بن عبدالملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح».

وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/٤١: «إسناده حسن».

=

وكذلك ما ورد أن النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقيء في وجنتيه حبُّ الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما أهلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر؛ عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»(١).

فالجواب عن ذلك: أن النهي الوارد مُنْصَبٌّ على الأمور الآتية:

١ـ الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل: قال ـ تعالى ـ ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ سورة الإسراء: ٣٦، وقال عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

وحسنه ابن حجر في الفتح ٤٨٦/١١، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير فيض القدير ٣٤٨/١، وقال الألباني في صحيح الجامع رقم(٥٤٥): «صحيح»

وانظر السلسلة الصحيحة ٤٢/١ (٣٤).

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٣٣٦/٦: «إسناده حسن».

وهذا الحديث جاء من حديث ثوبان ﷺ بلفظه عند الطبراني في الكبير ٩٦/٢ (١٤٢٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٢/٧: «وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف».

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة من كتاب القدر باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، (٢١٣٣) وقال: «وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها».

وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٣٢ـ ٢٢٣١): «حسن».

وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب ﷺ بلفظ: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم» أخرجه أحمد، ٣٠/١، وأبو داود (٤٧١٠) و(٤٧٢٠)، والحاكم، ٨٥/١.

الْخَائِضِينَ﴾ سورة المدثر: ٤٢ـ٤٥.

٢ـ الاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري القاصر: بعيداً عن هدي الكتاب والسنة؛ ذلك أن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل؛ لأن له حدوداً وطاقاتٍ يجب أن يقف عندها[١].

٣ـ ترك التسليم والإذعان لله ـ تعالى ـ في قدره: ذلك لأن القدر غيب، والغيب مبناه على التسليم.

٤ـ البحث عن الجانب الخفي في القدر: الذي هو سر الله في خلقه، والذي لم يطَّلع عليه مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل، وذلك مما تتقاصر العقول عن فهمه ومعرفته[٢].

٥ـ الأسئلة الاعتراضية التي لا يجوز إيرادها: كمن يقول مُتَعَنِّتاً: لماذا هدى الله فلاناً، وأضل فلاناً؟ ولماذا كلَّف الله الإنسان من بين سائر المخلوقات؟ ولماذا أغنى الله فلاناً، وأفقر فلاناً؟ وهكذا...

أما «من سأل مستفهماً فلا بأس به؛ فشفاء العي السؤال، أما من سأل متعنتاً ـ غير متفقه ولا متعلم ـ فهو الذي لا يحل قليلُ سؤاله ولا كثيرُهُ» [٣].

---

(١) انظر الإبانة لابن بطة العكبري ١/٤٢١ـ٤٢٢.

(٢) انظر الدين الخالص لصديق حسن ٣/١٧١.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٦٢، وانظر الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة ص٣٥، وشرح السنة للبربهاري ص٣٦.

٦ـ **التنازع في القدر:** الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه، وافتراقهم في شأنه، فهذا مما نهينا عنه.

ولا يدخل في التنازعِ المذمومِ منازعةُ الفرق الضالة، وردُّ شبههم، ودحض حججهم؛ لأن في ذلك إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل.

ومن هنا يتبين لنا أن النهي عن الحديث في القدر على إطلاقه غيرُ صحيح، وإنما النهي كان عن الأمور الآنفة الذكر.

أما البحث فيما يستطيع العقل البشري أن يجول فيه، ويفهمه من منطلق النصوص ـ كالبحث في مراتب القدر، وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد، إلى غير ذلك من مباحث القدر ـ فهذا ميسَّر واضح لا يمنع من البحث فيه، على أنه لا يستطيع كل أحد أن يفهمها على وجه التفصيل، إلا أن هناك من يعلمها ويكشف ما فيها.

ومما يؤيد ذلك ـ من أن النهي ليس على إطلاقه ـ أنه ورد في الحديثِ السابقِ، حديثِ ابن مسعود، مع الأمر بالإمساك عن القدر ـ الإمساكُ عن الصحابة.

والإمساكُ عن الصحابة إنما المقصود به الإمساك عما شجر بينهم، والكف عن ذكر مساوئهم، وتنقصهم، وثلبهم.

أما ذكر محاسنهم، والثناء عليهم فهذا أمر محمود بلا أي خلاف؛ فقد أثنى الله عليهم في القرآن الكريم، وزكاهم، وكذلك الرسول ﷺ.

ومما يؤيد ذلك ـ أيضاً ـ أن سبب غضب النبي ﷺ كما في الحديث السابق ـ حديث الترمذي ـ إنما هو بسبب تنازع الصحابة في القدر.

«وهذا يعني أن الكلام في القدر، أو البحث فيه بالمنهج العلمي الصحيح غير محرم أو منهي عنه، وإنما الذي نهى عنه الرسول ﷺ هو التنازع في القدر»[١].

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الحديث عن القدر لا يفتح بإطلاق، ولا يغلق بإطلاق؛ فإن كان الحديث بحق فلا يمنع ولا ينهى عنه، بل قد يجب، وإن كان بباطل فيمنع، وينهى عنه.

(١) القضاء والقدر في الإسلام، د. فاروق الدسوقي ١/٣٦٨.

الباب الأول

مسائل وإشكالات حول القدر

وتحته ثلاثة فصول:

:**الفصل الأول:** الإيمان بالقدر ومشيئة العبد واختياره

الفصل الثاني: فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الثالث: الاحتجاج بالقدر

الفصل الثالث: مسألة الهداية والإضلال

الفصل الرابع: التوفيق بين استئثار الله بعلم ما في الأرحام وبين علم الأطباء بذكورة الجنين في الرحم من أنوثته؟

الفصل الأول

الإيمان بالقدر ومشيئة العبد واختياره

الإيمان بالقدر ـ على ما مرَّ ـ لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، فقد دل على ذلك الشرع والواقع.

أما الشرع: فالأدلة على ذلك كثيرة جداً ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ سورة النبأ: ٣٩، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ سورة البقرة:٢٢٣، وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة: ٢٨٦، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ سورة آل عمران: ١٣٣، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ سورة الكهف: ٢٩.

أما الواقع: فكل إنسان يعلم أن له مشيئةً، وقدرةً يفعل بهما ويترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته، كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش[1].

لكنَّ مشيئته، وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة

(١) انظر منهاج السنة، لابن تيمية ٣/١٠٩ـ١١٢، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص٤٥ و١٦٦ـ١٦٩، وانظر رسائل في العقيدة لابن عثيمين ٣٧ـ٣٨، والقضاء والقدر لابن عثيمين ١٥ـ١٧.

التكوير :٢٨ـ٢٩.

وتوضيح ذلك كما قال العلامة ابن سعدي[(١)] رحمه الله: «أن العبد إذا صلى، وصام، وعمل الخير، أو عمل شيئاً من المعاصي ـ كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح، والعمل السيِّئ.

وفعله المذكور ـ بلا ريب ـ واقع باختياره، وهو يحس ـ ضرورة ـ أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل.

وكما أن هذا هو الواقع، فهو الذي نص الله عليه في كتابه، ونص عليه رسوله ﷺ حيث أضاف الأعمال صالحها، وسيِّئها إلى العباد، وأخبر أنهم هم الفاعلون لها، وأنهم محمودون عليها إذا كانت صالحة، ومثابون عليها، ومذمومون إذا كانت سيئة، ومعاقبون عليها.

فقد تبين بهذا واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحساً، وشرعاً، ومشاهدة.

---

(١) هو الشيخ العلامة المحقق أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر آل سعدي التميمي، ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧هـ، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ، ترك جمعاً غفيراً من التلاميذ على رأسهم الشيخ محمد بن عثيمين والشيخ عبدالله بن بسام والشيخ عبدالعزيز السلمان ـ رحمهم اللهـ والشيخ عبدالله بن عقيل وغيرهم كثير، وترك مصنفات نافعة منها: تفسيره، وخلاصة التفسير، والقواعد الحسان، والفتاوى، وغيرها.

انظر «الشيخ عبدالرحمن السعدي مفسراً» للشيخ عبدالله بن سابح الطيار، و«علامة القصيم» للشيخ الدكتور عبدالله بن محمد الطيار، و«الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة» للشيخ الدكتور عبدالرزاق العباد.

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها ـ وإن كانت كذلك ـ واقعة منهم، كيف تكون داخلة في القدر؟ وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال:بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرهاُ وشرُها؟ فيقال: بقدرتهم، وإرادتهم.

والذي خلق ما تقوم به الأفعال هو الذي خلق الأفعال؛ فهذا الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر، والقضاء، والاختيار.

ومع ذلك فهو ـ تعالى ـ أمد المؤمنين بأسباب، وألطاف، وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع، كما قال ﷺ: «وأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة» (١).

وكذلك خذل الفاسقين، ووكلهم إلى أنفسهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكلوا عليه، فولاَّهم ما تولوه لأنفسهم» (٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٧).

(٢) التنبيهات اللطيفة ص٨٢ـ٨٣، وانظر لمعة الاعتقاد، لابن قدامة، ص٢٢، وانظر شرح الواسطية، للهراس، ص٢٢٨، وانظر صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي ص٢٣٩ـ٢٤٣.

الفصل الثاني

فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إن مباشرتها من تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

«ولهذا يجب على العبد ـ مع الإيمان بالقدر ـ الاجتهادُ في العمل، والأخذ بأسباب النجاة، والالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ بأن ييسر له أسباب السعادة، وأن يعينه عليها» (١).

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة؛ فقد أمرت بالعمل، والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدد لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار، وغير ذلك.

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ سورة الجمعة:١٠، وقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ سورة الملك: ١٥، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سورة الأنفال:٦٠، وأمر المسافرين للحج بالتزود، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ سورة البقرة: ١٩٧، وأمر بالدعاء والاستعانة، فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ سورة غافر: ٦٠، وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ سورة البقرة: ٤٥.

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ عبدالله الغنيمان ٢/٦٢٩.

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه، وجنته، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

وحياةُ الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المسلمين جميعاً، والسائرين على نهجهم ـ كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد، والاجتهاد[١].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «ويظن كثير من الناس أن إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا غلط فاحش جدّاً، وهو عائد على القدر بالإبطال، وهو إبطال ـ أيضاً ـ للحكمة.

وكأن هذا الظَّانَّ يقول ويعتقد أن الإيمان بالقدر هو اعتقاد وجود الأشياء بدون أسبابها الشرعية والقدرية، وهذا نفي للوجود لها، فإنها ـ كما ذكرنا ـ أن الله ربط الكون بعضه ببعض، ونظم بعضه ببعض، وأوجد بعضه ببعض، فهل تقول أيها الظَّان جهلاً: إن الأولى إيجاد البناء من دون بنيان؟ وإيجاد الحبوب، والثمار، والزروع من دون حرث وسقي؟ وإيجاد الأولاد والنسل من دون نكاح؟ وإدخال الجنة من دون إيمان وعمل صالح؟ وإدخال النار من دون كفر ومعصية؟

بهذا الظن أبطلت القدر، وأبطلت معه الحكمة، أما علمت أن الله بحكمته، وكمال قدرته جعل للمسببات أسباباً؟ وللمقاصد طرقاً ووسائل تحصل بها؟ وقرر هذا في الفطر، والعقول، كما قرره في الشرع، وكما نفذه في الواقع؛ فإنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلق له من أصناف

---

(١) انظر القضاء والقدر، للأشقر ص٨٣ـ٨٤.

السعي، والحركة، والتصرفات المتنوعة، وبنى أمور الدنيا والآخرة على ذلك النظام البديع العجيب الذي شهد ـ أولاً ـ لله بكمال القدرة، وكمال الحكمة، وأشهد العباد ـ ثانياً ـ أن بهذا التنظيم، والتيسير، والتصريف وجّه العاملين إلى أعمالهم، ونشطهم على أشغالهم».

إلى أن قال رحمه الله: «فطالِبُ الآخرة إذا علم أنها لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح وترك ضدِّها ـ جدَّ واجتهد في تحقيق الإيمان، وكثرت تفاصيله النافعة، واجتهد في كل عمل صالح يوصله إلى الآخرة، واجتنب في مقابلة ذلك الكفر، والعصيان، وبادر للتوبة النصوح من كل ما وقع منه من ذلك.

وصاحب الحرث إذا علم أنه لا يُنَال إلا بحرث وسقي وملاحظة تامة جد واجتهد في كل وسيلة تنمي حراثته، وتكملها، وتدفع عنها الآفات.

وصاحب الصناعة إذا علم أن المصنوعات على اختلاف أنواعها، ومنافعها لا تحصل إلا بتعلم الصناعة، وإتقانها، ثم العمل بها جد في ذلك.

ومن أراد حصول الأولاد، أو تنمية مواشيه عمل وسعى في ذلك، وهكذا جميع الأمور»[1].

---

(١) الرياض الناضرة، ١٢٥ـ١٢٦، وانظر شفاء العليل ص٥٠ـ٥٣ والشيخ عبدالرحمن ابن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة د. عبدالرزاق العباد من ٨٦ـ٨٩، وانظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لابن سعدي ص١٢، والقضاء والقدر لأبي الوفاء محمد درويش ص٥٣ـ٦١، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبدالرحمن الدوسري ص١١٨ـ١٢٤، والتوكل على الله وعلاقته بالأسباب د. عبدالله بن عمر الدميجي ص١٦٣ـ١٩٤.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ : «وإذا ترك العبد ما أُمِرَ به متكلاً على الكتاب كان ذلك من المكتوب المقدور الذي يصير به شَقِيًّاً ، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول: أنا لا آكل ، ولا أشرب؛ فإن كان الله قضى بالشبع والريِّ حصل ، وإلا لم يحصل ، أو يقول: لا أجامع امرأتي فإن كان الله قضى لي بولد ، فإنه يكون.

وكذلك من غلط فترك الدعاء ، أو ترك الاستعانة ، والتوكل ظانًّاً أن ذلك من مقامات الخاصة ، ناظراً إلى القدر ، فكل هؤلاء جاهلون ضالون ، ويشهد لهذا ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت ، كان كذا وكذا ، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»[(١)].

فأمره بالحرص على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز الذي هو الاتكال على القدر ، ثم أمره إذا أصابه شيء ألا ييأس على ما فاته ، بل ينظر إلى القدر ، ويسلم الأمر لله؛ فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك ، كما قال بعض العقلاء: الأمور أمران: أمر فيه حيلة ، وأمر لا حيلة فيه ، فما فيه حيلة لا يعجز عنه ، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه»[(٢)].

ومما يقال لهؤلاء الذين يتركون العمل اعتماداً على القدر ـ إن الذي قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى ، ٨/٢٨٤ـ٢٨٥ ، وانظر السنن الإلهية ، د.عبدالكريم زيدان ص٢١ـ٣٣.

سنة »[1]، والذي قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار»[2] هو الذي قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[3]، ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ سورة البقرة: ٨٥.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٢ و ٤٩٤٥)، ومسلم(٢٦٤٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٧).

الفصل الثالث

الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات و ترك الواجبات

الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ما ترك من الواجبات، أو فَعَلَ من المعاصي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفس المحتجّ بالقدر إذا اعتدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول» [١].

وبما أن هذا الأمر مما يعمّ به البلاء فهذا إيراد لبعض الأدلة الشرعية والعقلية، والواقعية التي يتضح من خلالها بطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧٩/٨، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٨٥٨/٢-٨٥٩.

(٢) انظر منهاج السنة النبوية، ٦٥/٣-٧٨، وانظر مجموع الفتاوى ٢٦٢/٨-٢٦٨، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص٣٠٦، ورسائل في العقيدة ٣٨-٣٩، وانظر لمعة الاعتقاد بشرح الشيخ محمد ابن عثيمين ٩٣-٩٥.

١ـ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ سورة الأنعام: ١٤٨، فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم، ولو كان احتجاجهم مقبولاً صحيحاً ما أذاقهم الله بأسه.

ولهذا قال الله لهم: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي هل عندكم دليل صحيح، فتخرجوه لنا؛ لننظر فيه، ونتدبره.

والمقصود من هذا التبكيت لهم؛ لأنه قد عَلِم أنه لا عِلْم عندهم يصلح للحجة، ويقوم به البرهان، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم، وأنهم إنما يتبعون الظنون، التي هي محل الخطأ، ومكان الجهل(١).

٢ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ سورة النساء: ١٦٥.

فلو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لما كان هناك داعٍ لإرسال الرسل؛ فلم يبق للخلق على الله حجة بعد إرساله الرسل تترى يبينون للناس أمر دينهم، ومراضي ربهم(٢).

٣ـ أن الله أمر العبد ونهاه، ولم يكلِّفه إلا ما يستطيع، قال ـتعالىـ: ﴿فَاتَّقُوا

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/٢١٦.

(٢) انظر تفسير السعدي ٢/٢١٨.

اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ سورة التغابن: ١٦، وقال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة: ٢٨٦.

ولو كان العبد مجبراً على الفعل لكان مكلَّفاً بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا باطل، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل، أو نسيان، أو إكراه ـ فلا إثم عليه لأنه معذور.

٤ـ أن القدر سرٌّ مكتوم، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه، وإرادة العبد لما يفعله سابقة لفعله، فتكون إرادته للفعل غير مبنية على علمٍ بقدر الله، فادعاؤه أن الله قدَّر عليه كذا وكذا ادِّعاءٌ باطل؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فحجَّته إذاً داحضة؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

٥ـ أننا لو سلَّمنا للمحتج بالقدر على الذنوب لعطَّلنا الشرائع.

٦ـ لو كان الاحتجاج بالقدر ـ على هذا النحو ـ حجة لقُبل من إبليس الذي قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ سورة الأعراف: ١٦.

٧ـ ولو كان حجة هؤلاء مقبولة ـ أيضاً ـ لتساوى فرعون عدو الله، مع موسى كليم الله ـ عليه السلام ـ.

٨ـ الاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعائب تصحيح لمذهب الكفار، وهذا لازم لهذا المحتج، لا ينفكّ عنه.

٩ـ ولو كان حجة لاحتجَّ به أهل النار، إذا عاينوها، وظنوا أنهم مواقعوها، كذلك إذا دخلوها، وبدأ توبيخهم وتقريعهم، هل يحتجون بالقدر على معاصيهم وكفرهم؟

الجواب: لا؛ بل إنهم يقولون كما قال ـ عز وجل ـ عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ سورة إبراهيم: ٤٤، ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ سورة المؤمنون: ١٠٦، وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك: ١٠، وقالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ سورة المدثر: ٤٣، إلى غير ذلك مما يقولون.

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لاحتجوا به؛ فهم بأمس الحاجة إلى ما ينقذهم من النار.

١٠ـ ومما يردُّ هذا القول ـ أيضاً ـ أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر.

فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك: لو أراد إنسان السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟

لا شك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

١١ـ ومما يمكن أن يرد به على هذا المحتج ـ بناء على مذهبه ـ أن يقال له: لا تتزوج؛ فإن كان الله قد قضى لك بولد فسيأتيك، وإلا فلن، ولا تأكل ولا تشرب؛ فإن قدَّر الله لك شبعاً وريَّاً فسيكون، وإلا فلن، وإذا هاجمك سَبُعٌ ضَارٍ

فلا تفر منه؛ فإن قدَّر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار، وإذا مرضت فلا تتداوَ؛ فإن قدَّر الله لك شفاءً شفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء.

فهل سيوافقنا على هذا القول أم لا؟ إن وافقنا علِمْنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

١٢ـ المحتج بالقدر على المعاصي شبَّه نفسه بالمجانين، والصبيان؛ فهم غير مكلفين، ولا مؤاخذين، ولو عومل معاملتهم في أمور الدنيا لما رضي.

١٣ـ لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجة للاستغفار، والتوبة، والدعاء، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٤ـ لو كان القدر حجَّة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس، ولعمَّت الفوضى، ولما كان هناك داعٍ للحدود، والتعزيرات، والجزاءات؛ لأن المسيء سيحتج بالقدر، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظَلَمة، وقطَّاع الطرق، ولا إلى فتح المحاكم، ونصب القضاة؛ بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله، وهذا لا يقول به عاقل.

١٥ـ أن هذا المحتج بالقدر الذي يقول: لا نؤاخذ؛ لأن الله كتب ذلك علينا؛ فكيف نؤاخذ بما كُتِبَ علينا؟

يُقال له: إننا لا نؤاخذ على الكتابة السابقة، إنما نؤاخذ بما فعلناه، وكسبناه، فلسنا مأمورين بما قدره الله لنا، أو كتبه علينا، وإنما نحن مأمورون بالقيام بما يأمرنا به؛ فهناك فرق بين ما أريد بنا، وما أريد منا، فما أراده الله بنا طواه عنا،

وما أراده منه أمرنا بالقيام به.

ومما تجدر الإشارة إليه ـ أن احتجاج كثير من هؤلاء ليس ناتجاً عن قناعة وإيمان، وإنما هو ناتج عن نوع هوى ومعاندة؛ ولهذا قال بعض العلماء فيمن هذا شأنه: «أنت عند الطاعة قدري؛ وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به»[1].

يعني أنه إذا فعل الطاعة نسب ذلك إلى نفسه، وأنكر أن يكون الله قدر ذلك له، وإذا فعل المعصية احتج بالقدر.

وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المحتجين بالقدر: «هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى»[2].

الصورة الجائزة المسوغة للاحتجاج بالقدر:

يسوغ الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربًّا، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، «فالسعيد

(١) مجموع الفتاوى ١٠٧/٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٦٢/٨.

يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ سورة غافر: ٥٥.

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب»[(١)].

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً قتل آخر عن طريق الخطأ، ثم لامه من لامه، واحتج القاتل بالقدر، لكان احتجاجه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يؤاخذ.

ولو قَتَلَ رجلٌ رجلاً عن طريق العمد، ثم قُرِّع القاتل، ووُبِّخ على ذلك، ثم احتج بالقدر لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً؛ ولهذا حجَّ آدم موسى ـ عليهما السلام ـ كما في قوله ﷺ في محاجتهما: «احتج آدم موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدّر عليَّ قبل أن أخلق؟ فحجَّ آدم موسى»[(٢)].

فآدم ـ عليه السلام ـ لم يحتج بالقدر على الذنب كما يظن ذلك بعض الطوائف، وموسى ـ عليه السلام ـ لم يلُمْ آدم على الذنب؛ لأنه يعلم أن آدم استغفر ربه وتاب، فاجتباه ربه، وتاب عليه، وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/٤٥٤، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٥٧ـ٨٥٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٢).

ولو أن موسى لام آدم على الذنب لأجابه: إنني أذنبت فتبت، فتاب الله عليَّ، ولقال له: أنت يا موسى ـ أيضاً ـ قتلت نفساً، وألقيت الألواح إلى غير ذلك، إنما احتج موسى بالمصيبة فحجَّه آدم بالقدر(١).

«فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له؛ فإنه من تمام الرضا بالله ربّاً، أما الذنوب فليس لأحد أن يُذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب»(٢).

وممن يسوغ له الاحتجاج بالقدر التائبُ من الذنب، فلو لامه أحد على ذنب تاب منه لساغ له أن يحتج بالقدر.

فلو قيل لأحد التائبين: لم فعلت كذا وكذا؟ ثم قال: هذا بقضاء الله وقدره، وأنا تبت واستغفرت، لقُبل منه ذلك الاحتجاج(٣).

ثم إنه لا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من الذنب؛ فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١٧٨/٨، ومنهاج السنة ٧٨/٣ـ٨١، والاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص١٨ـ٢٢، والفرقان لشيخ الإسلام ص١٠٣ـ١٠٥، والتدمرية ص٢٣٠ـ٢٣١، والآداب الشرعية لابن مفلح ٢٥٨/١ـ٢٦٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٨٣/١ـ٨٧، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص٣٧٧ـ٣٩٥.

(٢) شرح الطحاوية ص١٤٧، وانظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١٦٣/٥، والتدمرية ص٢٣١، وانظر المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب من فتاوى ابن تيمية ص٣٤.

(٣) انظر شفاء العليل ص٣٥، وانظر القضاء والقدر، لأسعد محمد الصاغرجي ص٢٤، وتقريب التدمرية لابن عثيمين ص١١٥.

الباب الثاني

الحكمة والتعليل في أفعال الله

وتحته تمهيد، وأربعة فصول:

الفصل الأول: نسبة الشر إلى الله ـ تعالى ـ وحكم ذلك، والحكمة من إرادة الله لما لا يحبه

الفصل الثاني: الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام

الفصل الثالث: الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها

الفصل الرابع: الرضا بقدر الله، وحكم ذلك

تمهيد

مسألة تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة فيها من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر، والشرع والقدر.

والحديث في هذا المقام لا يسمح بالتفصيل.

وقد اختلف الناس فيها على أقوال شتى، ولكنَّها ترجع إلى قولين.

أحدهما: قول نفاة الحكمة، وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم ممن يرى أن الله ـ عز وجل ـ قدر المقادير، وشرع الشرائع لغير علة، أو حكمة، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصرف الإرادة.

الثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة، وأنَّ لله في كل ما يقضيه حكمةً ورحمة.

وهذه الحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه ـ تعالى ـ يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى عباده، فهي نعمة عليهم يفرحون، ويلتذون بها. وهذا يكون في المأمورات، والمخلوقات(١).

يقول ابن القيم رحمه الله مقرراً حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ فيما يقدره ويشرعه:

---

(١) انظر أصول الدين للبغدادي ص١٥٠ـ١٥١، مجموع الفتاوى ٣٥/٨ـ٣٦، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلاميه لابن تيمية ١٩٧/١ـ٢٠٣، وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص٢٦١ـ٢٦٣، والقضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود ٢٤٢ـ٢٤٨، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن المحمود ١٣١٠/٣ـ١٣١٢.

«ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالُنا من حكمة الله في خلقه لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها، وتلاشي علوم الخلائق جميعهم كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس، وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك، وهذا الوجود شاهد بحكمته، وعنايته بخلقه أتم عناية، وما في مخلوقاته من الحكمة، والمصالح، والمنافع، والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة ـ أعظم من أن يُحيطَ به وصفٌ، أو يحصرَه عقل؟!»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجماع ذلك أن كمال الرب ـ تعالى ـ وجلاله، وحكمته، وعدله، ورحمته، وإحسانه، وحمده، ومجده، وحقائق أسمائه الحسنى ـ تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة.

وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك، وتشهد ببطلانه»(٣).

وبعد هذا التمهيد ينتقل الحديث إلى المباحث التالية التي تقرر هذا المعنى.

---

(١) شفاء العليل ص٤١٩.

(٢) شفاء العليل، ص٤١٨.

(٣) شفاء العليل ص٤١٨.

الفصل الأول

نسبة الشر إلى الله ـ تعالى ـ وحكم ذلك، والحكمةُ من إرادة الله لما لا يحبه

المبحث الأول: نسبة الشر إلى الله ـ تعالى ـ وحكم ذلك:

إذا سأل سائل فقال: نحن نؤمن بالقدر خيره وشره من الله، فهل تصح نسبة الشر إلى الله ـ تعالى ـ؟ وهل يقع في أفعاله شر؟

فالجواب: أن يُقال: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منزَّه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبته إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابتُه، ومشيئته، وخلقُه، وذلك خير محض، وكمال من كل وجه، فالشر ليس إلى الرب بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه ولا صفاته، ولا في أفعاله.

ولو فَعَلَ الشر ـ سبحانه ـ لاشتُق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه من الشر حكمٌ ـ تعالى وتقدس ـ.

وإنما الشر يدخل في مخلوقاته، ومفعولاته، فالشر في المقضي، لا في القضاء، ويكون شرًّا بالنسبة إلى محل، وخيراً بالنسبة إلى محل آخر، وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه، كما هو شر من وجه آخر، بل هو الغالب، وهذا كالقصاص، وإقامة الحدود، وقتل الكفار؛ فإنه شرٌ بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر، والنكال، ودفع الناس بعضهم ببعض.

وكذلك الأمراض ـ وإن كانت شروراً من وجه ـ فهي خيرٌ من وجوهٍ عديدة.

والحاصل أن الشر لا يُنسب إلى الله ـ تعالى ـ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح في قوله: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»[1].

قال الإمام الصابوني رحمه الله في معنى هذا الحديث: «ومعناه ـ والله أعلم ـ والشر ليس مما يُضاف إلى الله إفراداً أو قصداً حتى يُقال: يا خالق الشر، ويا مقدر الشر وإن كان الخالق والمقدر لهما جميعاً؛ لذلك أضاف الخضر ـ عليه السلام ـ إرادة العيب إلى نفسه فقال ـ فيما أخبر الله عنه في قوله ـ: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ سورة الكهف: ٧٩.

ولمَّا ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله ـ عز وجل ـ فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ سورة الكهف: ٨٢.

ولذلك قال مخبراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ سورة الشعراء: ٨٠.

فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه»[2].

قال ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث: «فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه؛ فلو

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص٢٨٥.

أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو ـ سبحانه ـ خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته، لا في خلقه وفعله.

وخلقُهُ، وفعلُه، وقضاؤه، وقدره خيرٌ كله؛ ولهذا تنزَّه ـ سبحانه ـ عن الظلم، الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وُضِع في محله لم يكن شرًّا، فعُلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك» (١).

وقال ـ أيضاً ـ: «فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر، والسوء، والظلم إليه، مع أنه ـ سبحانه ـ الخالق لكل شيء؛ فهو الخالق للعباد، وأفعالهم، وحركاتهم، وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيحَ المنهيَّ عنه، كان قد فعل الشرَّ والسوءَ.

والربُّ ـ سبحانه ـ هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجَعْل منه عدلٌ وحكمةٌ، وصوابٌ، فَجَعْلُهُ فاعلاً خيرٌ، والمفعولُ شرٌّ قبيح؛ فهو ـ سبحانه ـ بهذا الجعل قد وضع الشيء في موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة، ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً، ونقصاً، وشرًّا» (٢).

---

(١) شفاء العليل ص٣٦٤ـ٣٦٥، وانظر منهاج السنة ٣/١٤٢ـ١٤٤، والتفسير القيم ص٥٥٠ـ٥٥٦، ومدارج السالكين ١/٤٠٩، وبدائع الفوائد لابن القيم ٢/٢١٤ـ٢١٥، والروضة الندية ص٣٥٤ـ٣٦٠، والحكمة في أفعال الله، د. محمد بن ربيع المدخلي ص١٩٩ـ٢٠٤.

(٢) شفاء العليل ٣٦٦، وانظر ص٣٦٦ـ٣٨٥ من الكتاب نفسه، ومنهاج السنة ١/١٤٥ـ١٤٦ و٣/١٤٢ـ١٤٥، والحسنة والسيئة لابن تيمية ص٥٢ـ٥٣، وطريق الهجرتين ص١٧٢ـ١٨١.

«والحاصل أن الله ـ تعالى ـ لا يُنسب إليه الشر؛ لأنه إن أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه ـ فهو الظلم، ومقابله العدل، والله منزَّه عن الظلم.

وإن أُريد به الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه ـ فإيجاد الله للعقوبة على ذنب لا يُعد شرًّا له؛ بل ذلك عدلٌ منه ـ تعالى ـ.

وإن أُريد به عدم الخير، وأسبابه الموصلة إليه ـ فالعَدَمُ ليس فعلاً حتى ينسب إلى الله، وليس للعبد على الله أن يوفقه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر» [1].

ثم إن على العبد إذا عرف ما يضره وينفعه أن يَذلَّ لله ـ عز وجل ـ حتى يعينه على فعل ما ينفعه، ولا يقول: أنا لا أفعل حتى يخلق الله فيَّ الفعل، كما أنه لو هجم عليه عدو أو سبع فإنه يهرب ويفر ولا يقول: سأنتظر حتى يخلق الله فيَّ الهرب[2].

ومن هنا يتبين لنا أن الشر لا ينسب إلى الله ـ عز وجل ـ.

وهذا ما سيتضح في المباحث التالية.

---

(١) الحكمة والتعليل في أفعال الله ص٢٠٢، وانظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ص٢٨٦ـ٢٨٧.

(٢) انظر القضاء والقدر للمحمود ص٢٨٠.

المبحث الثاني: الحكمة من إرادة الله لما يحبه:

إذا قيل: كيف يريد الله أمراً، وفي الوقت نفسه لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يجمع بين إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: إن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير؛ فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً لما يريد، ولا فيه مصلحة بالنظر إلى ذاته ـ وإن كان وسيلة إلى مقصوده، ومراده ـ فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه، وإيصاله إلى مراده؛ فيجتمع الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان، فيبغض من وجه، ويحب من وجه آخر.

وهذا أمر معلوم عند الخلق؛ فهذا الدواء الكريه الطعم والرائحة إذا علم الإنسان أن فيه شفاءَه أبغضه من وجه، وأحبه من وجه آخر؛ فيكرهه من جهة تألمه به، ويحبه من جهة إفضائه إلى ما يحب.

وقل مثل ذلك في العضو المتآكل إذا عَلِم أن في قطعه بقاءً لجسده، وكقطع المسافة الشاقة إذا عَلِم أنها توصل إلى مراده، ومحبوبه، كالذي يقطع الفيافي، والمفاوز، والقفار، قاصداً البيت العتيق.

ومن هنا يتبين لنا أن الشيء يجتمع فيه الأمران: بغض من وجه، وحب من وجه آخر، ولا يتنافيان، هذا في شأن المخلوق، فكيف بالخالق الذي لا تخفى

عليه خافية، الذي له الحكمة البالغة؟ فهو ـ سبحانه ـ يكره الشيء، ولا يتنافى ذلك مع إرادته له لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر محبوب[1].

وهذا ما سيتضح من خلال الأمثلة التالية في المبحثين التاليين.

(١) انظرتفصيل ذلك في شفاء العليل ص٣٦٤ـ٤١٢ و ٤٤٥ـ٤٦٠، وطريق الهجرتين ص١٨١ـ١٨٣، والفوائد ص١٣٦ـ١٤٠، ومقدمة مفتاح دار السعادة ص٣ ومابعدها من المقدمة، ومدارج السالكين١/٢٦٤ـ٢٦٩، و٢/١٩٠ـ١٩٨، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٢ـ٢٥٦، والحكمة والتعليل في أفعال الله ص٢٠٥ـ٢١٠، ولوامع الأنوار البهية ١/٣٣٩ـ٣٤٣.

الفصل الثاني

الحكمة من خلق إبليس، وخلق المصائب والآلام

المبحث الأول: خلق إبليس والحكمة من ذلك:

الله ـ عز وجل ـ خلق إبليس الذي هو مادة الفساد التي تمد كل فساد في هذه الدنيا، في الأديان، والاعتقادات، والشهوات، والشبهات، وهو سبب لشقاوة العباد، وعَمَلِهم ما يغضب الله ـ عز وجل ـ وهو مع ذلك كله وسيلة إلى محابَّ كثيرةٍ، وحكم عظيمة.

إذا تقرر ذلك فهذه بعض الحكم التي تلمسها العلماء من خلق إبليس:

١ـ أن يَظهر للعباد قدرةُ الرب ـ تعالى ـ على خلق المتضادات والمتقابلات: فخلق هذه الذات ـ إبليس ـ التي هي أخبث الذوات، وهي سبب كل شر، وخَلَق في مقابلها ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأزكاها، والتي هي مادة كل خير، فتبارك من خلق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والحر والبرد، والماء والنار، والداء والدواء، والموت والحياة، والحسن والقبيح، فالضد يظهر حسنه الضد، وهذا أدلُّ دليل على كمال قدرته، وعزته، وملكه، وسلطانه؛ فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محل تصرفه، وتدبيره، وحكمته، فخلوُّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه، وتدبير مملكته[1].

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٩٠ـ١٩١.

٢ـ أن يُكَمِّلَ الله لأوليائه مراتب العبودية: وذلك بمجاهدة إبليس وحزبه، وإغاظته بالطاعة لله، والاستعاذة بالله منه، واللجوء إلى الله أن يعيذهم منه ومن كيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية، والأخروية ما لا يحصل بدونه.

ثم إن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا، ونحوها أحب أنواع العبودية لله، وهذه إنما تتحقق بالجهاد، وبذل النفس، وتقديم محبته ـ عز وجل ـ على كل من سواه، فكان خلق إبليس سبباً لوجود هذه الأمور(١).

٣ـ حصول الابتلاء: ذلك أن إبليس خُلق ليكون محكًّا يمتحن به الخلق؛ ليتبين به الخبيث من الطيب؛ فإن الله ـ سبحانه ـ خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها الطيب والخبيث؛ فلا بد أن يظهر فيهم ما هو من مادتهم(٢).

٤ـ ظهور آثار أسمائه ـ تعالى ـ ومقتضياتها، ومتعلقاتها: فمن أسمائه: الرافع، الخافض، المعز، المذل، الحكم، العدل(٣).

وهذه الأسماء تستدعي متعلقاتٍ يظهر فيها أحكامُها، فكان خلق إبليس سبباً لظهور آثار هذه الأسماء، فلو كان الخلق كلهم مطيعين، ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء.

---

(١) انظر الحكمة والتعليل في أفعال العباد ص٢٠٥.

(٢) انظر الحكمة والتعليل ص٢٠٥، وعالم الجن والشياطين د. عمر الأشقر ص١٩٠.

(٣) انظر مدارج السالكين ٢/١٩١، وعالم الجن والشياطين ص١٩١.

٥ـ استخراج ما في طبائع البشر من الخير والشر: فالطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فَخُلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل؛ فاستخرج أحكم الحاكمين ما في هؤلاء من الخير الكامن فيها؛ ليترتب عليه آثاره، وما في أولئك من الشر؛ ليترتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له، مطابقاً لعلمه السابق(١).

٦ـ ظهور كثير من آيات الله وعجائب صنعه: فلقد حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكفَّارة الظالمة ظهور كثير من الآيات والعجائب، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله على يد موسى، وغير ذلك من الآيات؛ فلولا تقدير كفر الكافرين وجحد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

أما كونه ـ سبحانه وتعالى ـ أنظر إبليس إلى يوم القيامة ـ فليس ذلك إكراماً له بل إهانة له ليزداد إثماً، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، إضافة إلى ذلك فالله جعله محكًّا ليميز به الخبيث من الطيب ـ كما سبق ـ وما دام أن الخلق مستمر إلى

---

(١) انظر شفاء العليل ص٤٩٤ـ٤٩٥، ومدارج السالكين ٢/١٩٢ـ١٩٣.

يوم القيامة ـ فإن هذا يقتضي بقاءه ببقاء خلق البشر، والله أعلم[١].

المبحث الثاني: خلق المصائب والآلام والحكمة من ذلك:

وكذلك خلقُ الآلام، والمصائب فيه من الحكم ما لا يحيط بعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ تلك الحكم التي تنطق بفضل الله، وعدله، ورحمته.

قال ابن القيم رحمه الله: «فالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها، وإما لتولدها عن لذات ونعم يولِّدها عنها أمر لازم لتلك اللذات، وإما أن تكون من لوازم العدل، أو لوازم الفضل والإحسان؛ فتكون من لوازم الخير التي إن عُطِّلت ملزوماتها فات بتعطيلها خيرٌ أعظمُ من مفسدة تلك الآلام.

والشرع والقدر أعدلا شاهد بذلك؛ فكم في طلوع الشمس من ألم لمسافر وحاضر، وكم في نزول الغيث والثلوج من أذى كما سماه الله بقوله: ﴿ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ﴾ سورة النساء: ١٠٢.

وكم في هذا الحر والبرد والرياح من أذى موجب لأنواع من الآلام لصنوف الحيوانات.

وأعظم لذات الدنيا لذة الأكل والشرب والنكاح واللباس والرياسة، ومعظم آلام أهل الأرض أو كلها ناشئة عنها، ومتولدة منها.

بل الكمالات الإنسانية لا تنال إلا بالآلام والمشاق كالعلم، والشجاعة،

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٩٣.

والزهد، والعفة، والحلم، والمروءة، والصبر، والإحسان كما قال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفْقرُ والإقدام قتَّالُ

وإذا كانت الآلام أسباباً لِلَذَّاتٍ أعظم منها وأدوم ـ كان العقل يقضي باحتمالها»(١).

إلى أن قال رحمه الله: «وقد حجب الله ـ سبحانه ـ أعظم اللذات بأنواع المكاره، وجعله جسراً موصلاً إليها كما حجب أعظم الآلام بالشهوات واللذات، وجعلها جسراً موصلاً إليها.

ولهذا قالت العقلاء قاطبة: إن النعيم لا يدرك بالنعيم، وإن الراحة لا تنال بالراحة، وإن مَنْ آثر اللذات فاتته اللذات؛ فهذه الآلام والأمراض والمشاق من أعظم النعم؛ إذ هي أسباب النِّعم.

وما ينال الحيوانات غير المكلفة منها فمغمورٌ جداً بالنسبة إلى مصالحها ومنافعها كما ينالها من حر الصيف، وبرد الشتاء، وحبس المطر والثلج، وألم الحمل والولادة، والسعي في طلب أقواتها وغير ذلك.

ولكن لذاتها أضعافُ أضعافِ آلامها، وما ينالها من المنافع والخيرات أضعاف ما ينالها من الشرور والآلام؛ فسُنَّتُه في خلقه وأمره هي التي أوجبها كمالُ علمه وحكمته وعزته.

ولو اجتمعت عقول العقلاء كلهم على أن يقترحوا أحسن منها لعجزوا عن

---

(١) شفاء العليل، ص٤٩٨.

ذلك، وقيل لكلٍّ منهم: ارجع بصر العقل فهل ترى من خلل؟

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ سورة الملك: ٤، فتبارك الذي من كمال حكمته وقدرته أن أخرج الأضداد من أضدادها، والأشياء من خلافها؛ فأخرج الحي من الميت، والميت من الحي، والرطب من اليابس، واليابس من الرطب؛ فكذلك أنشأ اللذاتِ من الآلامِ، والآلامَ من اللذات؛ فأعظم اللذاتِ ثمراتُ الآلام ونتائجها، وأعظم الآلامِ ثمراتُ اللذات ونتائجها.

وبعدُ فاللذةُ والسرورُ، والخيرُ والنعمُ، والعافيةُ والصحةُ والرحمةُ في هذه الدار المملوءة بالمحن والبلاء ـ أكثرُ من أضدادها بأضعافٍ مضاعفة؛ فأين آلام الحيوان من لذته؟ وأين سقمه من صحته؟ وأين جوعه وعطشه من شبعه وريِّه وتعبه من راحته؟! »[١].

هذا وفي الآلام والمصائب حكم عظيمة غير ما ذُكِرَ، وفيما يلي ذكرٌ لبعضها على سبيل الإيجاز؛ إذ المقام لا يتسع للتفصيل:

١ـ استخراج عبودية الضراء وهي الصبر: قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ سورة الأنبياء: ٣٥.

فالابتلاء بالسراء والخير يحتاج إلى شكر، والابتلاء بالضراء والشر يحتاج إلى صبر.

---

(١) شفاء العليل، ص٤٩٩ـ٥٠٠.

وهذا لا يتم إلا بأن يقّلِّبَ الله الأحوال على العبد حتى يتبين صدق عبوديته لله ـ تعالى ـ.

قال ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

٢ـ طهارة القلب، والخلاص من الخصال القبيحة: ذلك أن الصحة قد تدعو إلى الأشر، والبطر، والإعجاب بالنفس، لما يتمتع به المرء من نشاط، وقوة، وهدوء بال، ونعيم عيش.

فإذا قُيِّد بالبلاء والمرض انكسرت نفسه، ورق قلبه، وتطهر من أدران الأخلاق الذميمة، والخصال القبيحة من كبر، وخيلاء، وعجب، وحسد، ونحوها، وحلَّ محلَّها الخضوعُ لله، والانكسار بين يديه، والتواضع لخلق الله، وترك الترفع عليهم.

قال المنبجي[2] رحمه الله : «وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن محمود الصالحي المنبجي، كان من فضلاء الحنابلة، سمع الحديث، وحفظ المقنع، وأفتى، ودرَّس، وكان يكتسب من حانوت له، على طريق السلف من الدين والتقشف والتعبد، وهو صاحب الجزء المشهور في الطاعون وأحكامه، ذكر فيه فوائد كثيرة وغريبة، توفي سن ٧٧٤هـ.

انظر شذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٨٩، والسحب الوابلة للشيخ محمد بن عبدالله بن حميد النجدي ٣/١٠٨١.

لأصاب العبد من أدواء الكبر، والعجب، والفرعنة، وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب؛ تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة، الرديئة، المهلكة؛ فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى، وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا، وبغوا، وعتوا، وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد؛ فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر، ونهي، وصحة، وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها ـ تمردت، وسعت في الأرض فساداً، مع علمهم بما فعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواء الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه، ونقاه، وصفَّاه أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، ورقاه أرفع ثواب الآخرة، وهي رؤيته»[(١)].

٣ـ تقوية المؤمن: ذلك أن في المصائب تدريباً للمؤمن، وامتحاناً لصبره، وتقوية لإيمانه.

---

(١) تسلية أهل المصائب للمنبجي ص٢٥.

٤ـ **النظر إلى قهر الربوبية وذل العبودية:** فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله، وقضائه، ولا محيد عن حكمه النافذ وابتلائه؛ فنحن عبيد الله، يتصرف فينا كما يشاؤه ويريده، ونحن إليه راجعون في جميع أمورنا، وإليه المصير يجمعنا لنشورنا.

٥ـ **حصول الإخلاص في الدعاء، وصدق الإنابة في التوبة:** ذلك أن المصائب تُشعر الإنسان بضعفه، وافتقاره الذاتي إلى ربه، فيبعثه ذلك إلى إخلاص الدعاء له، وشدة التضرُّع والاضطرار إليه، وصدق الإنابة في التوبة والرجوع إليه.

ولولا هذه النوازل لم يُرَ على باب اللجأ والمسكنة؛ فالله ـ عز وجل ـ علم من الخلق اشتغالهم عنه، فابتلاهم من خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به؛ فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عن ربك.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ما يكره العبد خيرٌ له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه»(١).

٦ـ **إيقاظ المبتلى من غفلته:** فكم من مبتلى بفقد العافية حصلت له توبة شافية، وكم من مبتلى بفقد ماله انقطع إلى الله بحسن حاله، وكم من غافل عن نفسه، معرضٍ عن ربه أصابه بلاء فأيقظه من رقاده، ونبهه من غفلته، وبعثه لتفقد حاله مع ربه.

٧ـ **معرفة قدر العافية:** لأن الشيء لا يعرف إلا بضده، فيحصل بذلك الشكرُ

---

(١) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص٢٢.

الموجب للمزيد من النعم؛ لأن ما مَنَّ الله به من العافية أتم وأنعم، وأكثر وأعظم مما ابتلى وأسقم، ثم إن حصول العافية والنعمة بعد ألم ومشقة أعظم قدراً عند الإنسان.

٨ـ أن من الآلام ما قد يكون سبباً للصحة: فقد يصاب المرء بمرض ويكون سبباً للشفاء من مرض آخر، وقد يبتلى ببلية فيذهب لعلاجها فيكتشف أن به داءً عضالاً لم يكتشف إلا بسبب هذا المرض الطارئ، قال أبو الطيب المتنبي:

لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقِبُه ... وربما صحت الأبدان بالعلل(١)

قال ابن القيم رحمه الله: «وكثيراً ما تكون الآلام أسباباً للصحة لولا تلك الآلام لفاتت.

وهذا شأن أكبر أمراض البدن؛ فهذه الحمى فيها من المنافع للأبدان ما لا يعلمه إلا الله، وفيها من إذابة الفضلات، وإنضاج المواد الفَجَّة وإخراجها ما لا يصل إليه دواءٌ غيرها.

وكثير من الأمراض إذا عرض لصاحبها الحمى استبشر بها الطبيب»(٢).

٩ـ حصول رحمة أهل البلاء: فالذي يبتلى بأمر ما ـ يجد في نفسه رحمة لأهل البلاء، وهذه الرحمة موجبة لرحمة الله وجزيل العطاء؛ فمن رَحِمَ من في الأرض رَحِمَهُ من في السماء.

---

(١) ديوان المتنبي ٣/٨٦.

(٢) شفاء العليل، ص٤٩٩.

١٠ـ حصول الصلاة من الله والرحمة والهداية: قال ـتعالىـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة: ١٥٥ـ١٥٧.

١١ـ حصول الأجر، وكتابة الحسنات وحط الخطيئات: قال ﷺ: «ما من شيء يصيب المؤمن، حتى الشوكةِ تصيبه، إلا كتب الله له بها حسنة، أو حُطت عنه بها خطيئة» (١).

قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس» (٢).

بل إن الأجر والثواب لا يختص به المبتلي فحسب، بل يتعداه إلى غيره؛ فالطبيب المسلم إذا عالج المريض واحتسب الأجر كتب له الأجر ـ بإذن الله ـ؛ فمن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

وكذلك الذي يزور المريض المبتلى يكتب له الأجر، وكذلك من يقوم على رعايته.

١٢ـ العلم بحقارة الدنيا وهوانها: فأدنى مصيبة تصيب الإنسان تعكر صفوه، وتنغص حياته، وتنسيه ملاذَّه، والكَيِّسُ الفَطِنُ لا يغتر بالدنيا، بل يجعلها مزرعة للآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٢).

(٢) برد الأكباد ص٤٦.

١٣ـ أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه: وهذا سر بديع، يحسن بالعبد أن يتفطن له؛ ذلك أن الله ـ عز وجل ـ أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين؛ فهو أعلم بمصالح عباده منهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم.

وإذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من ألا ينزل بهم؛ نظراً منه لهم، وإحساناً إليهم، ولطفاً بهم.

ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم، لكنه ـعزوجلـ تولى تدبير أمورهم بموجب علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته أحبوا أم كرهوا.

١٤ـ أن الإنسان لا يعلم عاقبة أمره: فربما طلب ما لا تحمد عقباه، وربما كره ما ينفعه، والله ـ عز وجل ـ أعلم بعاقبة الأمر.

قال ابن القيم رحمه الله: «فقضاؤه للعبد المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية.

ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه.

ولو رزق من المعرفة حظّاً وافراً لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة»[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢١٥ـ٢١٦.

١٥ـ الدخول في زمرة المحبوبين لله ـ عز وجل ـ: فالمبتلون من المؤمنين يدخلون في زمرة المحبوبين المُشَرَّفين بمحبة رب العالمين؛ فهو ـسبحانهـ إذا أحب قوماً ابتلاهم، وقد جاء في السنة ما يشير إلى أن الابتلاء دليل محبة الله للعبد؛ حيث قال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(١).

١٦ـ أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والعكس: فإذا صحت معرفة العبد بربه علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به أنها تحمل في طياتها ضروباً من المصالح والمنافع لا يحصيها علمه، ولا تحيط بها فكرته.

بل إن مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب؛ فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامَّة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، قال ـتعالىـ: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ سورة النساء: ١٩.

وقال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: ٢١٦.

فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه ـ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجة (٤٠٣١) من حديث أنس، وحسنه الترمذي، والألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٨٦.

(٢) انظر تفصيل الحديث عن حكم المصائب في: صيد الخاطر لابن الجوزي ص٩١ـ٩٥ و٢١٣ـ٢١٥ و٣٢٧ـ٣٢٨، والفوائد لابن القيم ص١٣٧ـ١٣٩ و١٧٨ـ١٧٩ و٢٠٠ـ٢٠٢، وبرد الأكباد ص٣٧ـ٣٩.

إلى غير ذلك من الحكم التي قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها.

ومن هنا يتضح لنا أنه لا تنافي بين إرادة الله لأمر من الأمور مع بغضه له؛ لما له ـ عز وجل ـ من الحكم العظيمة الباهرة.

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في المبحث الآتي عند الحديث عن الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها ، وعند الحديث عن مسألة الهداية والإضلال.

الفصل الثالث

الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها

قد مر بنا أن الله ـ عز وجل ـ له الحكمة البالغة فيما يقدره ويقضيه، كما مر ذكر لبعض الأمثلة الدالة على حكمة الله ـ عز وجل ـ.

والحديث في هذا المبحث إنما هو إتمام لما مضى ذكره، وأفرد هاهنا لكثرة الشبهات حوله، ولقلة الحديث عنه، ولكونه مرتبطاً بكثير من مباحث هذا الكتاب؛ فهل هناك من حكم لخلق المعاصي وتقديرها؟

والجواب عن هذا الإشكال أن لخلق المعاصي وتقديرها حِكَماً عظيمة، وأسراراً بديعة، باهرة، ولكن الحديث عن ذلك قليل جداً.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قلَّ من استفتحه من الناس، وهو شهود الحكمة البالغة من قضاء السيئات وتقدير المعاصي.

وإنما استفتح الناس باب الحكم في الأوامر والنواهي، وخاضوا فيها، وأتوا بما وصلت إليه علومهم.

واستفتحوا ـ أيضاً ـ بابها في المخلوقات ـ كما قدمناه ـ وأتوا بما وصلت إليه قواهم.

وأما هذا الباب فكما رأيت كلامهم فيه، فقلَّ أن ترى لأحدهم ما يشفي، أو يلم.

وكيف يطَّلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله

ولا داخلة تحت مشيئته أصلاً؟ وكيف يتطلب لها حكمة، أو يثبتها، أم كيف يطلع من يقول: هي خلق الله، ولكن أفعاله غير معللة بالحكم؟»[1].

إلى أن قال: «والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أقضيته وأقداره التي يجريها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي ألطف ما تكلم فيه الناس، وأدقُّه، وأغمضه، وفي ذلك حِكَمٌ لا يعلمها إلا الحكيم العليم -سبحانه- ونحن نشير إلى بعضها»[2].

ثم شرع رحمه الله في ذكر العديد من الحكم في هذا الشأن، فمن الحكم من خلق المعاصي وتقديرها ما يلي[3]:

١ـ **أن الله يحب التوابين:** حتى إنه ليفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التي عليها طعامه، وشرابه في الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وأيس منها.

وليس من أنواع الفرح أكمل وأعظم من هذا الفرح؛ فالله -عز وجل- يقضي على عبده بالذنب، ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة، وإن كان ممن غلبت عليه الشقاوة أقام عليه حجة عدله، وعاقبه بذنبه.

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢٨٦/١.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢٨٦/١.

(٣) الكلام في هذا أكثره مستفاد من مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٨٦/١-٢٩٩، فهو رحمه الله أبرز من تكلم في هذا الموضوع الدقيق، بل لا تكاد تجد لغيره كلاماً جامعاً في هذا الباب.

قال ﷺ : «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومةً ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله.

قال : أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومةً ، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده»[1].

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث : «ولم يجىء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة ، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبِه ، ومزيدُه لا يُعبَّر عنه.

وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد؛ فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية ، فيصير حبيباً لله؛ فإن الله يحب التوابين ، ويحب العبد المفتن التواب»[2].

٢ـ أن الله ـ عز وجل ـ يحب أن يتفضل على عباده: ويتم نعمه عليهم ، ويريهم مواقع بره وكرمه؛ فلذلك ينوعه عليهم أعظم الأنواع في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم ذلك أن يحسن إلى من أساء ، ويعفو عمن ظلم ، ويغفر لمن أذنب ، ويتوب على من تاب إليه ، ويقبل عذر من اعتذر إليه.

وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة ، والأفعال الحميدة ، وهو أولى بها

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) مدارج السالكين ٣٠٦/١ ، وانظر كلامًا جميلاً في المدارج ٢٢٦/١ـ٢٣٠حول معنى فرح الله ـ عز وجل ـ بتوبة التائب.

منهم وأحق، وكان في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول.

هذا ولو شاء الله ألا يُعصى في الأرض طرفة عين لم يُعْصَ، ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته ـ سبحانه ـ[١].

٣ـ أن يعرف العبد حاجته إلى حفظ الله له، ومعونته، وصيانته: وأنه كالوليد في حاجته إلى من يحفظه؛ فإنه إن لم يحفظه مولاه، ويصونَه، ويعينه فهو هالك ولابد[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد مدَّت الشياطين أيديها إلى العبد من كل جانب، تريد تمزيق حاله كله، إفساد شأنه كله، وأن مولاه إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط؛ فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله؛ فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق ألا يكل اللهُ العبدَ إلى نفسه، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه»[٣].

٤ـ استجلاب العبوديات المتنوعة من العبد إذا أذنب: من استعاذة، واستعانة، ودعاء، وتضرع، مما هو من أعظم أسباب سعادته وفلاحه؛ فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب، ويجد العبد نفسه

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٣.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٢، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٨.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٨٨.

كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائياً عنه؛ فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً، ولا يرى ربَّه إلا محسناً، قد كسر إزراؤه على نفسه قلبَه، وذلل لسانُه جوارحَه؛ فلو لم يكن من ثمرات ذلك القضاء والقدر إلا هذا لكفى به حكمة وكفى(١).

٥ـ **استخراج تمام العبودية:** وذلك بتكميل مقام الذل والانقياد؛ فأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله، وانقياداً، وطاعة(٢).

٦ـ **أن يعرف العبد حقيقة نفسه:** وأنها الظالمة الجهول، وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير، وعلم، وهدى، وإنابة، وتقوى فهو من ربها الذي زكاها به، وأعطاها إياه.

فإذا ابتلي العبد بالذنب عرف نفسه، ونَقْصَها؛ فَرُتِّبَ له على ذلك حِكَمٌ ومصالح عديدة، منها أن يأنف نقصها، ويجتهد في كمالها، ومنها أن يعلم فقرها إلى من يتولاها ويحفظها(٣).

٧ـ **تعريف العبد بكرم الله، وستره، وسعة حلمه:** وأنه لو شاء لعاجله على الذنب، ولهتك ستره بين العباد، فلم يَطِبْ له عيشٌ معهم أبداً.

ولكنه ـ عز وجل ـ جلَّله بستره، وغشاه بحلمه، وقيَّض له من يحفظه وهو في

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٤، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٨ـ٢٨٩.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٤، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٨.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٠، ومدارج السالكين ١/٢٣٥.

حالته هذه، بل كان شاهداً عليه وهو يبارزه بالمعاصي والآثام، ومع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام[١].

٨ـ تعريف العبد بكرم الله في قبول التوبة: فلا سبيل إلى النجاة إلا بعفو الله وكرمه ومغفرته، فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة، وألهمه إياها، ثم قبلها منه، فتاب عليه أولاً وآخراً[٢].

٩ـ إقامة الحجة على العبد: فإذا أصابه ما أصابه فلا يقل: من أين أُتيت، ولا بأي ذنب أُصبت؛ فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة أو جليلة إلا بما كسبت يده، وما يعفو الله أكثر[٣].

١٠ـ أن يعامل العبد بني جنسه بما يحب أن يعامله الله به: فيعامل بني جنسه في زلاتهم وإساءاتهم بما يحب أن يعامله الله في إساءته، وزلاته، وذنوبه؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفى عفى الله عنه، ومن سامح أخاه سامحه الله، ومن استقصى استقصى الله عليه، وهكذا...

ثم إذا علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه؛ فليتأمل حاله مع ربه، كيف هو مع فرط إحسانه إليه، وحاجته هو إلى ربه،

(١) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٣، ومفتاح دار السعادة ١/٢٩٠.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩١.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩١، ومدارج السالكين ١/٢٣٢ـ٢٣٤.

وهو هكذا له؛ فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟[(١)]

١١ـ إقامة المعاذير للخلائق: فإذا أذنب العبد أقام المعاذير للخلائق، واتسعت رَحمته لهم، واستراح من الضيق والحصر، وأَكْلِ بعضه بعضاً، واستراح العصاة من دعائه عليهم، وقنوطه من هدايتهم؛ فإنه إذا أذنب رأى نفسه واحداً منهم، فهو يسأل الله لهم المغفرة، ويرجو لهم ما يرجوه لنفسه، ويخاف عليهم ما يخافه على نفسه.

ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم؛ طاعةً لله، ورحمةً بهم، وإحساناً إليهم؛ إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة، ولا قوة، ولا فظاظة[(٢)].

١٢ـ أن يخلع العبد صولة الطاعة من قلبه: وينزع داء الكبر والعظمة الذي ليس له، ويلبس رداء الذل، والانكسار، والفقر والفاقة؛ فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه مما هو أعظم الآفات؛ فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة، وبين آثار الذلة والمسكنة والانكسار؟[(٣)]

قال ابن القيم رحمه الله: «وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات ـ في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩١ـ٢٩٢.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٢.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٢ـ٢٩٣.

ذنوب ليتوبوا منها؛ فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم وصولة طاعتهم، ومنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعتهم اقتضاءاً لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك؛ فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها؛ ليكسِر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويُذله بها، ويخرج بها صَوْلة الطاعة من قلبه ـ فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه ـ فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلاهما على خطر» (١).

ثم إن التذلل والانكسار والخضوع لب العبودية؛ إذ هذه الأعمال القلبية أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة، وحصول ذلك للمذنب التائب أكمل له من غيره؛ فإنه قد شارك من لم يُذنب في ذل الفقر والعبودية والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه.

وقد جاء في الأثر الإسرائيلي: «يا رب أين أجدك؟
قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» (٢).

---

(١) مدارج السالكين ١/٢٠٥.

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين١/٣٠٦، وأورده في إغاثة اللهفان ص٩٧عن عمران ابن موسى القصير قال: قال موسى ـ عليه السلام ـ: «يا رب أين أبغيك؟ قال أبغني عند المنكسرة قلوبهم؛ فإني أدنو منهم كل يوم باعاً، ولولا ذلك لانهدموا».

ورواه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن ص٥٦ بإسناده عن عبد الله بن شوذب قال: قال داود النبي: «أي ربِّ! أين ألقاك؟ قال: تلقاني عند المنكسرة قلوبهم».

ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[(١)].

لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

ولعل هذا هو السر في استجابة دعوة المظلوم، والمسافر، والصائم؛ للكسرة في قلب كل واحد منهم؛ فإن لوعة المظلوم تُحْدِثُ عنده كسرة في قلبه، وكذلك المسافر في غربته يجد كسرة في قلبه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السَّبُعية الحيوانية.

١٣ـ هياج العبوديات القلبية وانبعاثها: ذلك أن لله على القلوب أنواعاً من العبودية، من الخوف، والخشية، والإشفاق، والوجل، وتوابعها من المحبة، والإنابة، وابتغاء الوسيلة وتوابعها.

وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها؛ وكلما قيَّض الرب ـتعالىـ لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك، المهيجة له فهو من أسباب رحمته، ورُبَّ ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف، والإشفاق، والوجل، والإنابة، والمحبة، والفرار إلى الله ما لا يهيجه كثير من الطاعات، وكم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبعده عن طريق الغي[(٢)].

١٤ـ أن يعرف العبد نعمة معافاة الله وفضله، وتوفيقه له، وحفظه إياه: فإن من تربى في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى، ولا يعرف مقدار العافية؛ فلو عرف

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٣.

أهل الطاعة أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة لعلموا أن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإنْ توسَّدوا التراب، ومضغوا الحصى، فهم أهل النعمة المطلقة، وأنَّ من خلَّى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه.

فإذا طالبت العبدَ نَفْسُه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام، وأَرَتْهُ أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ، فحينئذٍ يكون أكثر أمانيه وآماله العودَ إلى حاله، وأن يمتعه الله بعافيته(١).

١٥ـ أن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها: فتوجب له المحبة، والرقة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه، فَرُتِّبَ له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها، وآثارها ما لم ينقضها، أو يفسدها(٢).

١٦ـ استكثار القليل من النعم: فإذا شهد العبد ذنوبه، ومعاصيه، وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه ـ ولا قليل منه ـ لعلمه أن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله، واستقل الكثير من عمله؛ لعلمه أن الذي ينبغي أن يغسل به أوضاره أضعافُ ما أتى به؛ فهو دائماً مستقل لعمله كائناً ما كان، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقَّت.

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٣.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٤.

قال ابن القيم رحمه الله عن هذا الوجه: «وهو من ألطف الوجوه؛ فعليك بمراعاته؛ فله تأثير عجيب، ولو لم يكن من فوائد الذنب إلا هذا لكفى؛ فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه ينبغي أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها»(١).

إلى أن قال عن هذا الضرب من الناس: «وهذا الضرب من الناس من أبغض الخلق إلى الله، وأشدهم مقتاً عنده، وحكمةُ الله تقتضي أنهم لا يزالون في سفال؛ فهم بين عتب على الخالق وشكوى له، وذلٍّ لخلقه وحاجة إليهم، وخدمة لهم»(٢).

١٧ـ أن الذنب يوجب لصاحبه التحرز والتيقظ من مصائد عدوه ومكائده: فيعلم من أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم، ومن أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون؛ فهو قد استعد لهم، وتأهب، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم؛ فلو أنَّه مرَّ عليهم على غِرَّةٍ وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به، ويجتاحوه جملة(٣).

١٨ـ مراغمة الشيطان وإغاظته ومجاهدته: فالقلب يذهل عن عدوه، فإذا أصابه منه مكروه استجمعت له قوته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرًّا كريماً.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٤.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٤.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥.

كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجاً، طالباً، مقداماً.

والقلب المهين كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولَّى هارباً، والجراحات في أكتافه.

وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق؛ فلا خير فيمن لا مروءة له، لا يطلب أخذ ثأره من أعدى عدوٍّ له.

فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدوَّ أعدى له من الشيطان؛ فإن كان له قلب من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جدَّ في أخذ الثأر، وغاظ عدوَّه كل الغيظ، وأضناه(١).

كما جاء عن بعض السلف: «إن المؤمن لَيُنْضِي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره»(٢).

١٩ـ معرفة الشر؛ حذر الوقوع فيه: فالذي يقع في الذنب يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم؛ فالطبيب الذي عرف المرض مباشرة، وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي عرف الداء وصفاً فحسب.

هذا في أمراض الأبدان، وكذلك أمراض القلوب وأدواؤها.

ولذلك كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أعرف الأمة بالإسلام، وتفاصيله،

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥.

وأبوابه، وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه، ومحبةً له، وجهاداً لأعدائه؛ لعلمهم بضده.

فإذا عرف العبد الضدين، وعلم مباينة الطرفين، وعرف أسباب الهلاك على التفصيل ـ كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم، وفي مثل هذا قال القائل:

عرفتُ الشرَّ لا للشرْ ... رِ لكنْ لتوقِّيه

ومن لا يعرف الشرَّ ... من الناس يقعْ فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر، وأبعدهم عنه؛ فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس، فإذا خالَطْتَهُ، وعرفت طويته رأيته من أبر الناس.

والمقصود أن من بُليَ بالآفات صار أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدها على نفسه، وعلى من استنصحه من الناس، ومن لم يستنصحه(١).

٢٠ـ ابتلاء العبد بالإعراض عنه: فالله ـ عز وجل ـ يذيق عبده ألم الحجاب عنه، وزوال ذلك الأنس به، والقرب منه؛ ليمتحن عبده، فإن أقام العبد على الرضا والحال، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره ـ علم أنه لا يصلح، فوضعه في مرتبته التي تليق به.

وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتَقَلَّقَ تَقَلُّقَ المكروب، ودعاه دعاء المضطر،

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥ـ٢٩٦.

وعلم أنه قد فاتته حياته حقًّا، فهو يهتف بربه أن يرد عليه ما لا حياة له بدونه ـ علم أنه موضعٌ لما أُهِّلَ له، فردَّ عليه أحوج ما هو محتاج إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذٍ مقداره، فعضَّ عليه بالنواجذ، وثنَّى عليه بالخناصر؛ فالعبد إذا بُلِيَ بَعْدَ الأُنْسِ بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد ـ اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنَّتْ، وأنَّتْ، وتصدَّعت، وتعرضت لنفحات مَنْ ليس لها عنه عوضٌ أبداً، ولاسيما إذا تذكر برَّه، ولطفه، وحنانه، وقربه[(١)].

٢١ـ أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان: وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية التي لا ينفك عنهما، وبهما وقعت الفتنة والابتلاء.

وتركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة، ولابد أن يقتضي كل واحد من القوتين أثره، فلابد من وقوع الذنب، والمخالفات والمعاصي.

ولو لم تُخلق في الإنسان لم يكن إنساناً، بل كان مَلَكاً، فأما من اكتنفته العصمة، وضُرِبَتْ عليه سرادقاتُ الحفظ ـ فهم أقل أفراد النوع الإنساني، بل هم خلاصته ولبه[(٢)].

٢٢ـ أن الله إذا أراد بعبد خيراً أنساه رؤية طاعاته، ورفعها من قلبه ولسانه:

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٦.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٧.

فإذا ابتلي العبد بالذنب جعله نصب عينيه، وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنْبه أمامه إن قام أو قعد، أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه، كما قال بعض السلف: «إن العبد ليعمل الخطيئةَ فلا تزال نصبَ عينيه كلما ذكرها بكى، وندم، واستغفر، وتضرع، وأناب إلى الله، وذل وانكسر، وعمل لها أعمالاً فتكون سبباً للرحمة في حقه.

ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، يمن بها، ويراها، ويعتد بها على ربه، وعلى الخلق، ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه، ويكرمونه، ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار»[(١)].

٢٣ـ لزوم التواضع وترك الترفع: فإذا شهد العبد ذنوبه وخطاياه أوجب له ذلك ألا يرى لنفسه على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقًّاً، فلا يظن أنه خير مسلم يؤمن بالله ورسوله، وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرَ لها على الناس حقوقاً من الإكرام، فاستراح هذا في نفسه، وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله؛ فما أطيب عيشه، وما أنعم باله؛ فأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً تركَ قيامهم بحقه، ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط؟[(٢)].

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٢٩٧ـ٢٩٨، وانظر كلاماً جميلاً في هذا المعنى في مدارج السالكين ٣٠٧/١ـ٣٠٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢٩٨/١.

٢٤ـ الاشتغال بعيوب النفس، والإمساك عن عيوب الناس: فالذنب يوجب له الإمساك عن عيوب الناس، والفكر فيها؛ فإنه في شغل بعيب نفسه، وهذا من أمارات السعادة[١].

٢٥ـ الاستغفار للخطائين: فإذا وقع الذنب من العبد شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين، وشهد أن المصيبة واحدة، وأنهم مشتركون في الحاجة، بل الضرورة إلى مغفرة الله، وعفوه، ورحمته؛ فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم ـ كذلك هو أيضاً يحب أن يستغفر لأخيه المسلم[٢].

هذه بعض الحكم من خلق المعاصي، وتقدير السيئات، يتضح بها شيء من حكمة العليم الحكيم فيما يقدره ويقضيه.

وبعد أن ساق الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً طويلاً نفيساً في الحِكَمِ من خلق المعاصي قال في آخره: «فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه، ومتى اجتنى منه أضدادها، وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهي والله علامة الشقاوة»[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٨.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٩.

الفصل الرابع

الرضا بقدر الله، وحكم ذلك

لسائل أن يسأل فيقول: ما حكم الرضا بقضاء الله؟ وهل نحن مأمورون بالرضا بكل ما يقضيه الله ـ عز وجل ـ؟

الجواب عن ذلك أن يُقال: «نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتابٌ ولا سنةٌ»(١).

بل إن الأمر فيه تفصيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قصيدته التائية في القدر:

وأمـا رضـانا بالقضـاء فإنَّما	أُمِرْنا بـأن نرضى بمثل المصيبةِ
كسُقمٍ وفقـرٍ ثـم ذلٍّ وغربـةٍ	ومـا كان مـن مـؤذٍ بـدون جريمـةِ
فأما الأفاعيل التي كُرِّهت لنا	فلا نصَّ يـأتي في رضاها بطاعـةِ
وقد قال قومٌ من أولي العلم لا	بفعل المعاصي والذنوب الكبيرةِ
وقال فريقٌ: نرتضي بإضافةٍ	ولا نرتضي المقضيَّ أقبحَ خصلةِ
وقال فريقٌ: نرتضي بإضافةٍ	إليه ومـا فينا فنلقى بسخطةِ
كما أنها للرب خلقٌ وأنها	لمخلوقه ليست كفعل الغريزة
فنرضى من الوجه الذي هو خلقه	ونسخط من وجه اكتساب الخطيئةِ(٢)

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٨، وانظر منهاج السنة ٣/٢٠٥، والاستقامة ٢/١٢٥ـ١٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/٢٥٣، وانظر الدرة البهية شرح القصيدة التائية لابن سعدي ص٥١.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في شرح هذه الأبيات:

«يعني إذا أورد المورد علينا: أنه يجب الرضا بقضاء الله ـ يعني والمعاصي من قدر الله ـ فقد أجاب الشيخ ـ يعني شيخ الإسلام ـ بأربعة أجوبة، كل واحد منها كافٍ شافٍ، فكيف إذا اجتمعت؟

❖ **أحدها:** أن الذي أُمرنا أن نرضى به: المصائب دون المعائب، فإذا أُصبنا بمرض أو فقر، أو نحوهما من حصول مكروه أو فقد محبوب فيجب علينا الصبر، واختُلف في وجوب الرضا، والصحيح استحبابه؛ لأنه لم يثبت ورود الأمر به على وجه الوجوب؛ لتعذره على أكثر النفوس؛ لأن الصبر حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط؛ من نتف الشعر، وشق الجيوب، وحثوِ التراب على الرؤوس، ونحوها، وذلك واجب مقدور.

أما الرضا الذي هو مع ذلك طمأنينةُ القلب عند المصيبة، وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت ـ فهذا صعب جدًّا على أكثر الخلق؛ فلهذا لم يوجبه الله، ولا رسوله، وإنما هو من الدرجات العالية، وهو مأمور به أمرَ استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعائب، فلم نؤمر بالرضا بها، ولم يأتِ نصٌّ صحيحٌ، أو ضعيفٌ في الأمر بها، فأين هذا من ذاك؟

❖ **الجواب الثاني:** ما قاله طائفة من أهل العلم: أن الله لم يرض لنا أن نَكْفُرَ، ونعصي؛ فعلينا أن نوافقَ ربَّنا في رضاه، وسخطه، قال ـ تعالى ـ ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ سورة الزمر: ٧.

فالدين: موافقة ربنا في كراهة الكفر، والفسوق، والعصيان، مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والإيمان، والطاعة لنا مع فعلها.

❖ **الجواب الثالث:** أن القضاء غير المقضي، فنرضى بالقضاء؛ لأنه فعله ـ تعالى ـ وأما المقضي، الذي هو فعل العبد فينقسم إلى أقسام كثيرة: الإيمان، والطاعة علينا الرضا بها، والكفر، والمعصية لا يحل لنا الرضا بها، بل علينا أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها من التوبة، والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها، والمباحاتُ مستويةُ الطرفين.

❖ **الجواب الرابع:** أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها، فهي من الله خلقاً وتقديراً وتدبيراً، وهي من العبد فعلاً وتركاً، فحيث أضيفت إلى الله ـ قضاءاً وقدراً ـ نرضى بها من هذا الوجه، وحيث أُضيفت إلى العبد ـ نسخطها، ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض»[1].

---

(١) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية ص٥١ـ٥٣، وانظر عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص٢٨٥ـ٢٨٦، ومنهاج السنة ٣/٢٠٣ـ٢٠٩، والاستقامة ٢/٧٣ـ٧٦، ومدارج السالكين ١/٢٦٨ـ٢٦٩، وشرح الطحاوية ص٢٥٨، وتسلية أهل المصائب ص١٥٢ـ١٦١، وانظر مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص ١٢٤ـ١٢٥، والمنتقى من فرائد الفوائد لابن عثيمين ١٠٩.

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في مباحث القضاء والقدر ـ هذا إجمال لأهم ما ورد في تلك المباحث، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١ـ الإيمان بالقدر من أهم مباحث العقيدة، فهو ركن من أركان الإيمان، والإيمان به تمام التوحيد، وكتب السلف الصالح في العقيدة اهتمت به، وأطنبت في ذكره، والناس على اختلاف طبقاتهم يشغلهم موضوع القدر؛ لارتباطه بحياتهم اليومية.

٢ـ الإيمان بالقدر أمر فطري، ومع ذلك فهو أعوصُ أبواب العقيدة، لدقة مسائله، وتشعبها، وكثرة الشبهات المثارة حوله؛ ولهذا لا يمكن أن يفهم إلا بفهم السلف الصالح ـ أهل السنة والجماعة ـ ولا يمكن لكل أحد أن يفهمه على وجه التفصيل.

٣ـ القدر هو تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمُه، واقتضته حكمتُه.

أو: هو علم الله، وكتابته للأشياء، ومشيئته وخلقه لها.

٤ـ الحديث عن القدر لا يُمنع بإطلاق، ولا يُفتح بإطلاق، بل إن الأمر فيه تفصيل، فإن كان الحديث عن القدر بالمنهج العلمي الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة، وكان الحديث عنه مراداً به الوصول إلى الحق ـ فإنه لا يمنع ولا يُنهى عنه، بل قد يجب.

وإن كان الحديث عنه خوضاً بالباطل، واعتماداً في فهمه على العقل المجرد أو كان للاعتراض أو التنازع أو التعنت فإنه لا يجوز البتة.

٥ـ الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح يثمر ثمرات جليلة على الأفراد

والمجتمعات في الدنيا والآخرة.

٦ـ الإيمان بالقدر دلَّ عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

٧ـ الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان تسمى: مراتب القدر وهي العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق.

٨ـ أفعال العباد داخلة في عموم خلقه ـ عز وجل ـ ولا يخرجها عن ذلك العموم شيء.

.

٩ـ الواجب على العبد في باب القدر أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويؤمن بشرع الله وأمره ونهيه، فعليه تصديق الخبر وطاعة الأمر، فإذا أحسن حمد الله ـ تعالى ـ وإذا أساء استغفر الله ـ تعالى ـ وعلم أن ذلك بقدر الله، فهذا هو الواجب على العبد، ولا يلزم كل أحدٍ أن يعرف مباحث القدر على وجه التفصيل، كما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة؛ فهم لا يوجبون على العاجز ما يوجبون على القادر.

١١ـ الإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، بل له مشيئة وقدرة، وهما تابعتان لمشيئة الله وقدرته، واقعتان بها.

١٢ـ فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، بل إن ذلك من تمام الإيمان به.

١٣ـ الاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب لا المعائب.

١٤ـ الإرادة الربانية تنقسم إلى قسمين:

١ـ كونية قدرية: وهي مرادفة للمشيئة ولا يخرج عن مرادها شيءٌ أبداً ولابد أن تقع.

٢ـ شرعية دينية: وتتضمن محبة الرب ورضاه، ولا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع.

١٥ـ الشر لا ينسب إلى الله ـ عز وجل ـ فهو منزه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبتُه إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، وذلك خيرٌ محضٌ، فالشر إنما هو في المقضي لا في القضاء، وفي مفعولات الله لا في أفعاله ـعز وجلـ.

١٦ـ قد يريد الله أمراً، ويشاؤه، وفي الوقت نفسه لا يحبه؛ لأن المراد نوعان:

١ـ مراد لنفسه إرادة الغايات مثل خلق جبريل ـ عليه السلام ـ.

٢ـ مراد لغيره: فهو وسيلة إلى غيره مثل خلق إبليس، فهو مكروه لله من حيث نفسه وذاته، مراد له ـ عز وجل ـ من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فهو سبب لحصول محابَّ كثيرة، فيجتمع الأمران بُغْضُه له، وإرادتُه له، ولا يتنافيان.

١٧ـ لله ـ عز وجل ـ الحكمة البالغة في كل فعل من أفعاله، وقد تظهر لنا الحكمةُ، وقد تخفى، ولا يلزم أن ندرك حكمته ـ عز وجل ـ في كل شيء، أو أن يدرك ذلك كل أحد.

١٨ـ وجوب الرضا بقضاء الله ـ عز وجل ـ فيه تفصيل؛ فإن كان ما قُضي وقُدِّر مرضيَّاً لله محبوباً له ـ كالإيمان وسائر الطاعات ـ رضينا به، وإن كان غير

مرضي لله ولا محبوب له ـ كالمعاصي والكفر ـ فلا نرضى به ، فعلينا موافقة ربنا في رضاه وفي سخطه؛ فالدين موافقة ربنا في كراهة الكفر والفسوق والعصيان مع تركها ، وموافقته في محبة الشكر والطاعة مع فعلها.

أو يقال : نرضى بالقضاء الذي هو فعل الله ـ تعالى ـ.

وأما المقضي الذي هو فعل العبد ـ ففيه تفصيل؛ فإن كان مرضياً لله رضينا به ، وإن كان غير مرضي لله لم نرض به.

٢٠ـ الإنسان مخير باعتبار ومسير باعتبار؛ فهو مخيَّر باعتبار أن له قدرة ومشيئة واختياراً ، ومسيَّر باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل في القدر راجع إليه ، ولكونه لا يخرج عما قدره الله له.

٢١ـ ورد في البحث ذكر لبعض الأخطاء التي تقع في باب القضاء والقدر.

٢٣ـ ورد في البحث ذكر لبعض أقوال الطوائف والملل في القدر.

هذا ملخص ما ورد في هذا البحث ، وفي الختام أسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه؛ إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

آيات سورة الأنبياء

آيات سورة غافر

آيات سورة فصلت

آيات سورة الملك

آيات سورة المدثر ٤

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الموضوعات